obeikandi.com

الدستور

القرآن الكريم

هو الكتاب الذي أنزله الله تعالى على قلب محمد بن عبد الله ﷺ بطريق أمين الوحي الملاك جبريل خلال **٢٣** سنة، بحسب الحوادث الطارئة. ونقله إلى الصحابة شفاهاً وتلاوة، وأشرف بنفسه على تدوينه كتابة.. ثم حفظه كثير من الصحابة إذ ذاك في الصدور، واحتفظوا به في السطور.

القرآن كتاب هداية إلى الحياة السعيدة، أنزله الله للدنيا والآخرة معاً، فمن أجل الدنيا ضم تشريعات وقوانين ونُظماً للمعاملات بين الناس في الحياة اليومية من بيوع وشراء وديون وأمثال ذلك. وفيه تنظيم للحياة الاجتماعية من زواج وطلاق وميراث مع ربطها بالأخلاق، وفيه قانون القضاء والعقوبات الأساسية، والقانون الدولي الإنساني.

ويتحدث الجانب الأخروي في القرآن عن العبادات والطاعات، ويحذر من المعصية، وينذر العاصين ناراً يصفها لهم، ويذكر عذابها الأليم. ويبشر المتقين بجنة يصوّر فيها النعيم، كما يسوق صوراً لأهوال يوم القيامة.. ويشفع كل أولئك بالموعظة والحكمة المنثورة في ثنايا الآيات، ويضرب

من خلالها الأمثال، ليقرب المعاني إلى الأذهان. ومن أساليب الموعظة فيه إيراده لأخبار الأمم السالفة وقصصهم، وجزائهم الأليم ونهايتهم.

وفي القرآن إشارات مختلفة إلى جوانب علمية معجزة في الكون، وفي النفس البشرية وفي آفاق الأرض والخَلْق.. يدعو الله بمناسبة ذلك إلى إعمال الفكر والعقل، والأخذ بأسباب العلم والحث عليه.

ويُعنى القرآن بتنمية الفرد، إذ يضع كلَ امرئ أمام مسؤولياته تجاه ربه، وتجاه مجتمعه، وتجاه نفسه. وبهذا التوجه لا نجد في القرآن أوامر وحسب، بل يسوق وسائل الإقناع، ويستثير عقل الإنسان بما يورد من حوار وحجج، تُعلِّم المحاكمة العقلية وتُنمي الفكر.

ونتعلم من القرآن صفات الله تعالى خالق كل شيء، القادر على كل شيء، وأنّه يبعثنا بعد موتنا، ويحاسبنا على ما عملنا، ويقضي بيننا بعدله ورحمته. ونتعلم منه كذلك كيف نثني على الله عز وجل، وكيف ندعوه ونتوجه إليه بالتضرع.

وفي القرآن آيات متشابهات، وأخرى مكررات وتغييرات في الشكل وفي التعبير لأغراض بلاغية فنية تأتي في نسيج موسيقي ينسجم مع المعاني إثارة وهدوءاً، لبوسه التصوير الفني الرائع الذي لم يعرف العرب نظيره.

obeikandl.com

ودارسو القرآن يذكرون أنه كتاب غزير المعاني، خالٍ من التناقض والاختلاف، ولم تتنزل آية من أوله حتى ختامه لا تنسجم مع الآيات الأخرى.

والقرآن أدهش العرب، وحاروا في وصفه لمّا سمعوه. وقد تحداهم في فصاحتهم التي يعتزون بها أن يأتوا بمثله، فلم يقدروا أن يوجهوا إليه تهمة في الفصاحة أو يأخذوا عليه خطأً واحداً في اللغة.. أو اضطراباً في الآيات.

وبقي الكتابَ الخالد الذي لم يُحَرَّف، ولم ينقص منه حرف، ولم يزد عليه حتى اليوم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ١٥/ ٩].

والقرآن ولو كان عربي اللغة إلا أنه إنساني التوجه، لا يميز عرقاً عن عرق، ولا بلداً عن آخر، ولا عصراً عن غيره. فهو للإنسانية جمعاء كما تؤكد الآية ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٣٤/ ٢٨].

هذا القرآن هو دستور المسلمين، فَرض الله عليهم فيه أن يأتمروا بأوامره، وينتهوا عن نواهيه، ويأخذوا بأخلاقه، ويلزموا تشريعاته. ويأتي بعده في المنزلة الحديث النبوي الصحيح. وإليهما أشار النبيﷺ بقوله: «تركت فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً، كتابَ الله وسنتي»[١].

(١) كنز العمال ١/ ٨٧٦.

كان النبيﷺ عندما تتنزل عليه الآيات يأمر بعض الشباب بكتابتها على الوسائل المتاحة في التدوين آنذاك كالجلود والعُسُب وألواح العظام والخشب.. وسمّي هؤلاء كتّابَ الوحي. وعند الفراغ من تدوينها، يأمر أن تُقرأ عليه، ليطمئن إلى صحة ما كتبوه، ثم يحتفظ بها عنده.

وتؤكد المصادر أن النبيﷺ كان يعرض ما نزل عليه من القرآن على جبريل في شهر رمضان، كما كان يتلوه على الصحابة، فيقابلون تلاوته على نسخهم أمامه. وفي السنة الأخيرة عرض النبيﷺ القرآن على جبريل مرتين، كان ذلك قبيل وفاته بأشهر قليلة. وحين اكتمل نزول القرآن الكريم حضر الصحابة العرضة الأخيرة التي اشتهرت، وعليها قابلوا ما كتبوه من القرآن.

لحق النبيﷺ بربه بعد أن بلّغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح للأمة ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٥/ ٣]. ونسخة القرآن المكتوبة على الرقوق والخوص والألواح، مرتبة لا بحسب نزول الآيات، بل بترتيب توقيفي بأمر النبيﷺ.

ومات رسول اللهﷺ فارتدّ كثير من العرب الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم وخصوصاً في اليمامة، فقام المسلمون لقتالهم لأنهم هددوا الدولة، وعرَّضوا حبل الأمن للاضطراب، وما رجعوا إلى جادّة الإيمان إلا بعد أن قتل عدد

openkandil.com

كبير من الحفظة، فأدرك خليفة المسلمين الأول أبو بكر الصديق ضرورة جمع آيات القرآن في مصحف واحد، فكلّف زيد بن ثابت وهو أحد كتَّاب الوحي الذي شهد العرضة الأخيرة فضلاً عن كونه من الحفّاظ، كلَّفه أن يجمع القرآن في نسخة واحدة متجانسة بين دفتين. لأنّ آياته المكتوبة كانت متفرقة في رقع وألواح ورقوق، ليس كلها في مكان واحد، ولا في شكل متجانس.

شرع زيد بكتابة نسخة كاملة من القرآن بين دفتين، فوضع الخليفة بين يديه كل ما في المدينة من نسخ مكتوبة من أجزاء القرآن كان أصحابها قد عرضوها على النبيﷺ شفاهاً. ويُذكر أنه وجد آيتين مكتوبتين عند صحابي لم يجد لهما نسخة أخرى، أما باقي الآيات فوجد منها نسخاً عديدة، أملاها النبيﷺ على كتَّابها بنفسه. وما كان زيد يثبت آية في النسخة الجديدة إلا إذا شهد عليها صحابيان اثنان من الحفظة.. حتى أكمل كتابة القرآن كلّه. وحينئذ أمر الخليفةُ بإحراق جميع المكتوبات.. واعتماد نسخة زيد التي وضعت عند حفصة بنت عمر إحدى أمهات المؤمنين، فكانت النسخة الأم.

ولما تولى الحكم ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان بلغه أن المسلمين في المناطق البعيدة وخاصة في أرمينية اختلفوا في قراءة القرآن، فأمر زيد بن ثابت أن يشرف بنفسه على كتابة سبع نسخ من القرآن، أو خمس. بعث إلى كل ناحية

من النواحي بواحدة منهن، وأمسك الأولى عنده في المدينة، وبقي القرآن بذلك محفوظاً حتى اليوم لم يتغيّر منه حرف واحد، لم يُزد عليه، ولم يُنقص.

بقي القرآن محفوظاً في الصدور والسطور، والحفظة اليوم لا يأخذون القرآن من الصحف، وإنما يتلقونه كل عن شيخه شفاها، وهذا يذكر بدوره أنه تلقاه حفظاً عن شيخه كذلك.. وهكذا يتسلسل التلقي عن الشيوخ إلى أن يتصل السند بأحد الحفظة من الصحابة الذين حفظوه من رسول اللهﷺ بالحرف الواحد من غير زيادة ولا نقصان.. ويتطابق حفظهم مع نسخ القرآن الموجودة بين الناس اليوم تطابقاً تاماً.

وبفضل القرآن حُفظت اللغة العربية فلم تتغير مع الأيام، لأنّه كان المرجع الذي احتكم إليه العرب، والميزان الذي اعتمدوه، والنموذج الذي داروا حوله، وإن تطورت.. ولكن ضمن قواعد مضبوطة. ومن ثم يعيش العرب والمسلمون اليوم بفضل القرآن مع تاريخهم وأدبهم بكل اعتزاز.

الحديث الشريف

هو كلام النبيﷺ أو فعله أو صفته أو تقريره.. وينضم إليه قولُ الصحابي وفعله، وهو ما يسمى الحديث الموقوف، وقولُ التابعي وفعله ويسمى الحديث المقطوع. وقد أنزل الله تعالى كلام رسوله بمنزلة كلامه فيما يخص التشريع ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ

أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: ٤/ ٥٩] ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٥٩/ ٧].

وربما يتصرف النبيﷺ تصرفاً ما في حالات انحباس الوحي عنه، فتؤيده الآيات فيما بعد أو تصحح له ما قام به من عمل.

على أن للحديث وظيفة هامّة، منها تفصيل ما نزل به القرآن، فالآيات التي فرضت العبادات مثلاً لم تبين كيفية أدائها، حتى تعلمها الصحابة من النبيﷺ، فقال: «صلوا كما رأيتموني أصلي»(١)، وقال في الحج: «خذوا عني مناسككم»(٢) وفصّل لهم في مسائل الزكاة وأنصبة أنواع المال، وبيّن ما يلزم في الصيام، وعلمهم الأدعية والذكر والابتهال إلى الله. كما بيَّن الحديث الشريف أموراً لم يذكرها القرآن، كبعض الأحوال الشخصية، وكثيراً من أنواع المعاملات المالية وأمور الحرب وغير ذلك.

وتأتي أهمية السنّة النبوية فوق ذلك في أنها تطبيق عملي للإسلام، في جوانب الحياة كلها، ذلك أن النبيﷺ عاش بعدما بعثه الله عز وجل **٢٣** سنة لتحقيق الحياة الإسلامية، وقدم للأمة ديناً مارسه بنفسه على نحو دقيق، وأقام دولة أدارها، كان فيها القائد الأعلى الذي حفظ السِّلْم، وأقرَّ النظام

---

(١) البخاري ٦٠٥.

(٢) مسلم.

obeikandl.com

الداخلي، وقاد الجيش ضد الخطر، وحلّ النزاعات بين الأفراد، وعاقب الجناة، وسنّ التشريعات المكملة لِما نزل في القرآن..

عاش النبيﷺ حياة بشرية كبقية الناس وجرى عليه ما جرى عليهم، فتزوج وطلق، واغتنى واحتاج، وباع واشترى، وملك العبيد وأعتق، واستوهب ووهب، واستقرض وأقرض، ورهن واسترهن، وأهدى وأُهدي إليه، وتصدق.. فكانت أعماله كلها تشريعاً، وتفسيراً للقرآن يقتدى به، فأقام الحجة على الناس بأن الدين ممكن التطبيق يناسب الفطرة ويحقق السعادة. والمهم في ذلك كله أنه لم يكن هو نفسه يتجاوز التشريع الذي فرضه على الناس كلهم.. وإن كانت له خصوصيات حددها القرآن بدقة، ولم يخرج عنها.

ولئن حرص الرسولﷺ على كتابة القرآن كما مرّ، إلا أنه لم يأمر بكتابة الحديث، وإن كان عدد من الصحابة يكتبونه لأنفسهم، ويعرضون ما كتبوه على النبيﷺ(١) وفي المصادر من جهة أخرى أن النبيﷺ منع من كتابة كلامه ابتداءً لئلا تختلط نصوص الحديث بنص القرآن.. ثم رفع المنع عندما تمثل الصحابة نسيج القرآن، فميزوه من كلام البشر.

وبعد انتشار الفتوح رأى التابعون ضرورة تدوين الحديث،

(١) تقييد العلم ٩٥، ٩٦.

فانكبوا على جمعه من الرواة، ورحل طلاب العلم إليهم، حتى دونوه بالسند إلى النبيﷺ.

ثم أخضعوا الحديث كله لدراسة منهجية دقيقة، نقدوا فيها السند والمتن، فظهر لديهم علم مصطلح الحديث، وهو علم ابتكروه لخدمه السنة النبوية ومعرفة صحيح الحديث من سقيمه، تفرعت عنه علوم كثيرة، منها علم الجرح والتعديل، وعلم مشكل الحديث، وعلم أسباب ورود الحديث، وعلم غريب الحديث، وعلم مشتهر الحديث.. وغير ذلك من العلوم التي تصب في خدمة السنة التي أوصلها المحدثون والحفّاظ إلى المستوى العالي العلمي المطلوب.

الاجتهاد

القرآن والسنة إذن يشكّلان دستور الدين الإسلامي، وعليهما الاعتماد في جوانب الحياة الإسلامية كلها أمراً ونهياً، وفيهما أساسيات التشريع..

إلا أنّ نوازل قد تقع، لا نجد لها تفاصيل في هذين الأصلين، وعندئذ فتح النبيﷺ باب الاجتهاد، ولكن بالانطلاق من روحهما ؛ أرسل رسولُ الله عليه الصلاة والسلام معاذَ بن جبل قاضياً إلى اليمن، وأراد أن يعرف حصافة رأيه وبُعد نظره، فسأله : «كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟» قال : «أقضي بكتاب الله». قال : «فإن لم يكن في كتاب الله؟» قال : «فبسنة رسول الله». قال : «فإن لم يكن في سنة رسول الله؟»

قال : «أجتهد رأيي، ولا آلو». فأُعجب النبيﷺ بجوابه، وضرب على صدره استحساناً، وقال : «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله»(١). ففتح عليه الصلاة والسلام باب الاجتهاد في الدين الذي فصّل فيه العلماء فيما بعد. ولا يفهم من ذلك أنه يكون كيفما اتفق، بل يقوم على أصول، سمي العلم بها «أصول الفقه».

وقد مارس الصحابة الاجتهاد في مناسبات عديدة حتى في حياة النبيﷺ ؛ فحينما انصرفوا عقب غزوة الخندق، أعلن عليه الصلاة والسلام فيهم يستنفرهم لتأديب الذين غدروا في تلك الغزوة، فقال: «من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة»، وفي الطريق أدركتهم صلاة العصر، فنزل ناس فصلوها، وامتنع آخرون فما صلوها إلا عند حصونهم، وخطّأ بعضهم بعضاً، لأن الذين صلوها في الطريق أخذوا بمقصد الحديث، وهو الاستعجال في الخروج، وأولئك تمسكوا بظاهر النص. والنتيجة أن النبيﷺ لم يخطّئ أياً منهم ما دام أخذ بحجة.

وعرضت لعمر بن الخطاب قضايا جديدة اجتهد بها، وشاور عدداً من الصحابة الذين أقروه عليها، فلم يحدّ سارقاً في عام المجاعة، وقتل أشخاصاً ائتمروا على قتل واحد، وأسقط سهم

(١) الترمذي وأبو داود وأحمد والدارمي.

المؤلفة قلوبهم من أصناف المستحقين للزكاة.. وفرض زكاة الخيل، واجتهد في المواريث بما استجدّ، وغير ذلك كثير مما رضيه الصحابة كلهم. وهو في هذا ينطلق من مفهومه لمقاصد الشريعة.

ولما تطورت الحياة، وانكب المسلمون على القرآن والسنّة مصدري التشريع الأساسي ظهرت المذاهب الفقهية التي وضعت قواعد العلوم الشرعية على أسس راسخة وأخذت قضايا جديدة تطفو على السطح، لم تكن في العهد الأول، اضطرت الفقهاء إلى الاجتهاد..ولذا وضعوا شروطاً للمجتهد، وهو أن يكون عالماً بالقرآن ومعانيه لغة وشرعاً، وأن يتضلع من قواعد العربية ونحوها وصرفها، وأن يميّز مفهوم الكلام، صريحه وظاهره ومجمله وحقيقته ومجازه، وعامّه وخاصّه، ومحكمه ومتشابهه، ومطلقه ومقيّده، ومنطوقه ومفهومه، وناسخه ومنسوخه، وأن يحيط علمه بالسنة النبوية وعلم مصطلح الحديث، وأن يعلم بموارد إجماع المسلمين، فلا يجتهد بما يخالفهم، وأن يعرف وجوه القياس وشرائطها وأحكامها وأقسامها والمقبول منها والمردود.. وختموا في الشروط أن يكون على تقوى وصلاح ويتحرى الصحة.. وعند ذاك يقبل منه الاجتهاد.

obeikandl.com